تجربتي مع الشعر

قراءة في ذاكرة الإبداع

الأستاذ الدكتور

محمد محمد الغرباوي

أستاذ الأدب والنقد - عميد كلية اللغة العربية بالزقازيق

فرع جامعة الأزهر

ملخص البحث

يختلف الشاعر عن غيره برقة الشعور ، ورهافة الحس، والتفاعل مع أدق الأحداث وأعظمها ؛ والشاعرية موهبة إلاهية لا دخل له فيها ، فإذا ما تنبه إليها راح يبحث عن مصادر تغذي تلك الموهبة في قراءات متنوعة وتفكير وتأمل في الحياة.

ولا يعد الشاعر قوالب مرسومة مسبقاً يصب فيها تجاربه وإنما يترك نفسه على سجيتها تمليه وتعبر عن آلامها وآمالها في انسيابية وشاعرية فياضة ، وإلا كان الشعر نظماً لا رواء فيه.

و ها هي قصائدي – وخصوصاً الذاتية – تعبر عن ذلك حيث أبدأ بكلمات تدفعني إليها مشاعري و تصوير يمليه علىَ إحساسي دون توقف أو تفكير حتى تهدأ ثائرتي فتخرج القصيدة على أي شكل في صورها المثبتة في دواويني.

و من أخص النماذج نموذج قصيدة الديوان " انكفأت على ذاتي" فقد توالت فيها الموجات العاتية في صخب فوق أريكتي في ليالي متتابعة و أنا مستسلم للمشاعر وأترجمها بحروف تنسلخ عن فؤاد مكلوم وروح ثائرة حتى اكتملت على صورتها .

و عندما تتدفق الشاعرية يتناول الشاعر أي أدوات لديه حتى يكتب ما أحس به كقصاصات ورقية أو حتى علب سجائر كما كتب رامي ، وناجي قبل ذلك وفعلتها أيضاً في كثير من الأحيان مما يؤكد انسياق الشاعر وراء مشاعره دون تفكير أو انتظار و ذلك بخلاف الشعر الموضوعي التأملي الذي يحتاج لشيء من هذا التمهل.

Research Summary

The Poet differs from the others with the tenderness of feeling, the sensitivity of the sense, and the interaction with the most precise and greatest events the poetical talent is heavenly gift , poet has no favor and cannot be acquired through learning . when he realizes that he starts to look for the sources that develop that talent through various readings and thinking and contemplations in life.

The poet does not prepare pre-painted templates in which he pours his experiences, but leaves himself for its distinction to dictated and express it is pain and hopes in the flow of poetry otherwise poetry becomes mere and rogue rhythm without any significance ..

And here are my poems - especially the self - express poems which express what I have mentioned before in where I start with words that my feeling pushed me feelings pushed me into and the image dictated to my sense without stopping or thinking so as to calm my revolution the poem comes out in any form in the images installed in my documents..

especially the closest model to my heart the poem "Diwan" "I devoted my self-doing it , in which the high and strong waves rolled in the hustle and bustle on my couch pillow in successive nights and I surrender to the feelings and translate them with letters coming out of broken heart and revolutionary soul until in completes in this final from and image ..

When poetry inspiration flows, the poet takes any tools he has to write down what he feels like paper clips or even cigarette packs, as Rami wrote, and Nagy did before and I did so too often, which confirms the poet 's drift behind his feelings without thinking or waiting. He needs something from this slack.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد البلغاء وإمام المرسلين، وبعد.

فتلك لمحة موجزة أعبر فيها عن تجربتي الإبداعية، وما عانيته وأعانيه في أثناء الإبداع الشعري حتى يخرج للمتلقي.

تمهيد: الشاعر أدواته وشاعريته:

يعد الشاعر من أرق الناس إحساسا ورهافة؛ فهو يتميز برقة الشعور، ورهافة الحس، والتفاعل مع أدق الأحداث وأكبرها تفاعلا غير عادي؛ وتلك موهبة إلاهية لا دخل له فيها، وقد لا يتعرف إلى شاعريته قبل أن ينطق بالشعر أو يكتبه، فإذا ما جاشت قريحته بشيء عبّر بكلام أولي يختلف به عن أقرانه ومعاصريه.

وإذا تنبه الشاعر لشاعريته الموهوبة له، المتأصلة فيه راح يبحث عن مصادر التغذية لتلك الشاعرية؛ ليعب من معين الشعر في مختلف عصوره وأشكاله، وينغمس في صفحات الثقافة بشتى صورها وألوانها يرضي بذلك نهمه ويشبع بغيته.

والشاعر الحق هو من يحافظ على تلك الموهبة الفطرية بالتثقيف والتنقيب عن كل جديد ومفيد في شتى فروع الثقافة والمعرفة، وقد يتخذ من أدنى الأشياء تجربة حيّة عبقرية تفوق عظائم التجارب موضوعا ومعنى؛ إذ نراه بحسه وشاعريته وهمومه وآلامه وآماله يذوب فيها ذوبان الثلج في الماء فيخرج تجربة رائدة تعبر عن إحساس مرهف وشعور فياض بالألم أو الأمل.

ولا يفهم من هذا أن الشاعر يعد قالبا مرسوما مسبقا ليصب فيه تجربته سواء من الناحية الموضوعية أو الفنية بفروعها لغة وأسلوبا وتصويرا

وموسيقا؛ إذ لا يعقل أن يقرر الشاعر سلفا أنه سيكتب قصيدة في موضوع كذا على وزن كذا (عمودي أو تفعيلة) ثم يبدأ في رصف معانيه وصوره بلغة يتخيرها على وزن مرسوم معلوم لديه مسبقا؛ وإلا كان ذلك من باب النظم الجاف والشعر المصنوع الذي لا يعبر عن نفس حقيقية ولا يحرك مشاعر الآخر فضلا عن تحريك مشاعر الشاعر ذاته.

وكم من تجارب أثارتني فحركت مشاعري وأثارت فؤادي فلم أملك حيالها إلا الانتفاض للشاعرية والإسراع إلى القلم وتسجيل تلك التجربة في قالب لا أدري شكله حين أكتب، فلا أحس إلا بالكلمات تنسال على أوراقي انسيالاً حتى تهدأ روحي وتسكن جوارحي فيخرج الفرح أو الترح أو التهديد أو الوعيد أو التحذير قصيدة مترجمة لما كنت عليه.

ولا يشترط أن ينغمس الشاعر بنفسه في تجاربه كلها؟ بمعنى أن يشترك فيها فعليا ــ خصوصا تجاربه العامة ــ كالسياسة والقضايا الإنسانية والقومية؛ وإنما يكفيه إلمامه بها سماعا أو رؤية أو قراءة فيهتم بمحتواها ويلم بأطرافها بداية ونهاية أو بداية واشتعالاً ثم يتخيل ما قد يحدث أو ما قد يتمنى لها من نهاية راصدًا الواقع الأليم، أو النهاية المأساوية.

وأما التجارب الذاتية فليس من المعقول تخيلها كلها؛ بل لابد من الانصهار فيها والذوبان في مجالها حتى تصور معاناته في أفراحه وأتراحه تصويرا صادقا ينم عن الإيمان بما يحس والتعبير عنه بصورة بديعة؛ وكم من التجارب الذاتية التي عشتها معايشة حقيقية وعانيتها واختلطت بها دمائي ومشاعري؛ فجاءت واصفة ما عشته في قوالب شكلية مختلفة ببدايات ومتتاليات ونهايات غير محسوبة ولا محسومة، بمعنى أن أبدأ بكلمات (تفعيلية أو عمودية) على شكل ما بلغة يدفعني إليها شعوري وتصوير يمليه فؤادي دون تفكير واعٍ أو توقف حتى تهدأ ثائرتي فأترك القلم دون أن أغير كلمة

واحدة – في الأعم الأغلب – لأنها عبرت عن مكنون حسي وكوامن نفسي ساعة انفعلت بالتجربة – فإذا ما عدت لقراءة تلك التجربة أخذتني الدهشة من تلك النفس التي أحست وتلك المشاعر التي أملت؛ فأرضى بها كما هي فلا أقدم ولا أرتب شيئا مما كتبت!

وها هي قصائدي في الرثاء والغزل والشعور الذاتي بوجه عام؛ وكثير من التجارب العامة تبوح بذلك.

ومن عجب أنني في كثير من القصائد أبدأ بخاطر خطر لي يدور في نفسي ويردده لساني (ببيت أو شطر أو تفعيلة) فلا أترك القلم إلا بعد إتمام ما بدأت بهمهمته دون توقف أو تلعثم أو اضطراب؛ وقد يحدث لي ما يشبه الغفو أو السكون الفكري فلا أنتبه جيدا لما أكتب ولا أنظر إليه بدقة إلا بعد نهايته، وحدث ذلك بالفعل معي في قصائد كثيرة وأخص ديوانين كاملين هما: "عشرون ليلة في الأحزان"، "انكفأت على ذاتي" إذ كانت الكلمات تسبقني سبقا وتدفعني إلى التعبير دفعا فتهل على أوراقي متدفقة هادرة كالتي في صراع مع نفسي أغالبها وتغالبني حتى انتهيت إلى الصورة التي سجلت في صفحات الديوانين.

ومما يتصل بموضوع الشاعرية الخاصة بي عناوين قصائدي حيث أعد كثيرا منها مسبقا؛ وإنما كان كثير منها يأتي بعد نهاية القصيدة فيهتف خاطري بكلمة أو جملة أو شبه جملة فألصقها بها فور إحساسي بها؛ وفي قليل من الأحيان كان العنوان يسبق قصيدتي بخاطر يخطر لي وخصوصا في الموضوعات العامة والإنسانية، وفي النادر ما أترك قصائدي بلا عنوان؛ وهذا يدعم رأيي الذي بدأت به حديثي من أن الشاعرية الحقة هي التي تنساق وراء المشاعر غير متقيدة بقوالب مرسومة جاهزة كما يظن بعض الدارسين أو يرى بعض المتشاعرين المتطفلين على هذه الحدائق الغناء؛ إذ لا يعرف الشوق إلا من يكابده، ولا الصبابة إلا من يعانيها.

كتبت ستة عشر ديوانا حتى الآن؛ بدأت بتجربة إنسانية قومية في حديث مستفيض عن قضية البوسنة والهرسك وما دار في ساحتها من نهب الصرب لها وسلب حريتها وضياع هويتها وتشريد ساكنيها، وما مر خلال ذلك من أهوال تفوق الخيال، سجلت ذلك في قصائد عمودية وأخرى تفعيلة وعنونت الديوان "البلابل تأكلها البوم"؛ وعشت أيامها تلك التجربة من خلال مشاهدتي للتلفاز وقراءة الصحف فانغمست فيها انغماسًا تاما.

أخرجت أيضا مسرحيتين: إحداهما عن قضية فلسطين والأخرى عن عدالة "عمر بن عبدالعزيز" ﷺ وهي تجارب تاريخية أحطت بمعظم مفرداتها فهما وتفاعلا وتعبيرا، كما كتبت خمسة دواوين للأطفال في التوجيه والسلوك والتهذيب من خلال تجارب دينية وسلوكية وتربوية لا يختلف عليها اثنان، وكان من بين ذلك النتاج خمسة دواوين وكل ذلك الشعر في أكثر من ربع قرن من الزمان تقلبت فيه بين الأفراح والأتراح والحل والترحال، وعشت تجاربها عن قرب، فقرأت كثيرا عن التجارب السياسية والتاريخية وعايشت كثيرا منها في الداخل والخارج؛ وأما تجاربي الذاتية فكانت في دمي وأنا أكتبها كما أشرت من قبل.

ومما يتعلق بالفطرة الشاعرة قضية الارتجال الشعري؛ وكنت محظوظا جدا في هذا الجانب، حيث ارتجلت كثيرا من الخواطر ــ خصوصا في سفري ووحدتي ــ فكنت أهرع لقلمي وأوراقي لأسجل ما يتردد على لساني وخاطرتي وهي تهدر بالمعاني فأطبعها على صفحاتي قبل ضياعها في زحمة الأفكار ــ وأحيانا يكون بيتا أو بيتين وفي أحايين كثيرة تخرج قصيدة طويلة كما هو مثبت في الأعمال المنشورة مؤرخة وموصوفة ومعنونة.

المبحث الأول
نماذج تطبيقية للإبداع

وبتفصيل ما أجملت، واستدعاء بعض نماذجي الإبداعية تتضح الرؤية لدى المتلقي ليرى صدق ما قررته من رحلتي مع معاناتي في إبداع ما أحسست ورسم ذلك في صور حية على صفحات الكتب بعد أن كانت همسات تداعب الروح وتتألق في جنبات الفكر والشعور.

أبدأ بقصيدة قومية أطلق عليها بعض النقاد "رثاء العراق"، وعنونت لها: "الطائي والمعتصم حول أسوار عمورية":

قلت فيها:

بِيعْتِ يا ولدي "بغدادْ"
بيعْتِ غدرا بالثمن البخس المعتادْ!!
قالوا سقطتْ
سقطتْ سهوا، وانتحرتْ فيها الآسادْ
لم أسمعها سيفا يقرع
لم أسمع قعقعةً فيها
سمعتْ أذني صوتا يعلو
شَحَجَ البغلُ مع الأوغاد!!
يا ولدي، نُهْبِتِ "بغداد"
ضاعتْ، تاهت بين ضبابات الأحقادْ
فوضى عَمّتْ كلّ المدن
وأحالتْها بعض رماد!!
يا "معتصمًا" إن كان المعتصمُ هناك
بحّ الصوتُ، وزاغتْ عينٌ في الآحاد

ليــــت امــــرأةً تبقــــى حـــره
فتُناديـــــك مــــع الأعــــداد ! !
يـــا ابْـــنَ "رشــيدٍ" قــم وتحــرّكْ
وامــحُ العـــار مــــع "المِقْــــدَادْ"
فـــاحفظْ عنّـــي بعـــضَ جراحـــي
واكْتُـــب نصــــرا دون مَـــدادْ
بَلَّغــــتُ المعتصـــمَ اليــــأسَ
مــن فرســان، مــن شــجعانٍ في الآمــادْ
بَلّغْـــــهُ حزنــــا وزفــــيرا
واأســـفاه!، وامعتصـــما للّـــرواد ! !

***

بقيـــت عنـــدي بعـــضُ أمــــاني
لـــوحقـــا فكّـــتْ أصـــفادْ ! !
قـــام الطـــائي يمشـــي خجـــلا
خلـــف الســـور بـــه قـــد بـــادْ
ســـيفُ العــرب غـــدا كـــالعُودِ
والتّنجـــــيُم بــــه قـــــد زادْ
"عمّوريـــــةُ" ســـاختْ غُنْمَـــا
وعرائُسـها أضـحْت جثثـا تحـت رمـاد ! !
تـــينٌ يشـــوى بجرائقهـــا
والأعنــــابُ بهـــا الأحقـــادْ

يـــا "معتصـــما" خُـــذْ مـــن غـــيري
فالطـــــائيُّ أضـــــاع اللغـــــة
وراح اليـــــوم بـــــلا إســـــنادْ
كـــــان امـــــتلأ بـــــأحرفِ نـــــور
أجـــرى الشـــعَر علـــى كفيّـــه وكـــان الـــزادْ
و"المعتصُـــــم" يمـــــوجُ بســـــيف
جَـــذّ رقابـــا في معمعـــةِ يـــوم حصـــاد ! !
يـــا معتصـــمي، كـــم ناديـــتُ ولم تســـمْعني:
بِيَـــع اليـــومَ عـــراقُ أبيـــك بغـــيرِ مَـــزَادْ ! !

١٠/٤/ ٢٠٠٣م

وتجربتي في هذه القصيدة دامية، سهرت في غربتي في الســعودية أمــام التلفاز أراقب بحسرة ما يدور ساعة سقوط بغداد في أيدي الأمريكان ودخــول جنودها منتفخين مفتخرين يلوك من يركب الدبابة "علكا" في فمه ويدور بزهــو المنتصر على لا شيء! فدارت في ذاكرتي ونبضاتي قسمات عراق المعتصــم يوم أن انتصر لها في وقعة "عمورية" وشاهدت عراق اليوم تحــت الهزيمــة والخذلان؛ فاستدعيت المعتصم وعمورية وأبا تمام في بائيته كل ذلك دار فــي مشاعري لحظات السطو والهدم والنهب فأمسكت قلمي تقطر دموعي وينتفض فؤادي ولم أسكن حتى وصلت لنهاية القصيدة المذكورة – كل ذلك في جلســة واحدة –٠

نموذج آخر للشعر الوطني، قصيدة بعنوان "جبل الفاتح"، عايشت قصــتها مع المذياع في أحد أعياد أكتوبر سنة ١٩٩٤م، وكان بطلها العقيد محمد الفاتح الذي سيطر على هذا الجبل بقلة قليلة العدد والعتاد وأطلق الــرئيس الســادات اسمه على هذا الجبل تمجيدا لبطولته، قلت فيها:

جبل الفاتح

هي قصة حقيقية رواها بطلها "محمد الفاتح" الذي سيطر على هذا الجبل في حرب رمضان المجيدة فأُطلق اسمه على هذا الجبل ابتهاجا بنصره، لأنه كان في مجموعة قليلة العدد، واستطاع أن يهزم الكثرة الكافرة بقلة العدد والعتاد، وسمعت لقاءه في المذياع فهالني الخبر، وترجمت حكايته شعرا:

كالنَّسْرِ طَوَّقْتَ الأعادي بالفَنَا
وَطَفِقْتَ تُمطُرهم بعزمٍ لاقَنَا
في فتيةٍ عشرين أو زادوا قليلاً يا بطلْ!
صَدَّعْتَ صَرْحَ الكِبْرِ في أعلى الجبلْ

* * *

هَلَّتْ جُموعُك في انسيالٍ بَعْدَما
ذُقْتَ المرارةَ والخسارةَ والعَطَلْ
لكنْ مع الإصرارِ فَتَّقْتَ القُوى
وانداحتِ الصّحراءُ حولك في جَوَى
ونذيرُ صوتِ الموتِ فيهم قد عَوَى

* * *

أَ"مُحَمَّدٌ" ولأنتَ أَعْظَمُ فاتحٍ
شَهِدَتْ بطولَتك الأحبَّةُ والعِدَا
وارتاحتِ الآمالُ في حِضْنِ النَّدَى
وتعلّقْت بك الصحراءُ تُهديك الفِدا
فَحَملتَ رُوحك قاصدًا شُرْبَ الرَّدَى
لَكأنّما الإعصارُ دَوَّى والنَّذيْر
لمّا اقتحمتَ حُصُونَهُمْ..

أَعْلَى الجبلْ ! . .
فَرَّتْ أفاعيهم سُكَارَى في ذُهولْ
يَتَرَنَّحونَ بِعَارِهِمْ . .
يَتَقَامرون على النُّزولْ . .
يتهامسون مع الأُفولْ . .
ولسانُ خَيْبَتِهم يَقُولْ:
يا مِصْرُ . . عِيشي في نعيمٍ لَنْ يَزُولْ
واستقبلى الأُسْد الضواري بالطُّبُولْ

* * *

خَطُّوا طريقَ النصْر في وَضَحِ النّهَارْ
بِزَئيرِهمْ غَسَلُوا الهزيمةَ والدَّمارْ
وَتَنسَّمُوا عَبق الأَحِبَّةِ والدِّيَارْ
وَتربَصَّوُا بالغاصبينَ الْمُعْتَدينْ
لَنْ تُفْلِتُوا ! . .
حَصَدُوا الحَيَارَى والسُّكَارى الغافلينْ
طعَنُوا الغُرورَ المُستعارْ
داسُوا الأُنوفَ الماكرهْ
حَطَمُوا الجِباهَ الدّاعِرَهْ

* * *

يا "مصرُ" تيهي وافْخَري
يا كُتْبُ خُطّي واذْكُري
خَيْرَ الرّجالِ، فَهُمْ بَنُوكِ

حَمَلُوا النفوس الطّاهره
فَوْقَ الأكُفّ البَاهره
يَفْدُون أمًّا ساهره
قَد أطعمتْهم برّها
لا تَغْمِطُوها نَصْرَها
قُوموا ارْحَمُوها مِنْ أيادِ كَافِرَهْ ! !
طافتْ سَمَاءُ المَجْدِ في عَيْنِ الْبَطَلْ

* * *

وتَلألأتْ أمجادُ "مِصْر" في الْجَبَلْ
وتعانقتْ أحلامُ "سيناً" في خَجَلْ
فاهتزّ قَلْبُ "مُحمَّدٍ"
وتراقصتْ طَلَقَاتُهُ
مَسَحتْ جُفونَ الخِزْيِ، وانْبلجَ الأملْ !
والصّقر حَلّق فَوْقَ أَسْرابِ النّعاجْ
واختار بَابَ الْوكْر فَجَاً
فانقضّ تَتْبعُه الصّقور بلا انْزعاجْ
وبمِخْلب خالي الوفَاضْ
إلا مِنَ الإيمانِ والعزمِ الأكيدْ
فرّتْ نِعَاجُ الغدرِ في خِزْيٍ بليدْ
والصّقْرُ نادى في الأُسودْ:
لاَ، لَنْ تراعوا، واكْسِروا كِبْرَ الْيَهُودْ
هيّا احفِرُوا في الصَّخرِ عُنْوانَ النّشيدْ

يا "مصُر" عيشي في انتصار كالجُدود
قُومي انزعي ثَوْبَ الهزيمةً والرُّكود
ثمّ البسي نَصْرَ الإله مَعَ الخُلُودْ ! !

لم أر الرجل، ولكن سمعت شهامته وشجاعته في برنامج إذاعي فكأني أراه وهو يضع روحه على كفه، ويلقي بنفسه ومن معه في أتون المعركة ولم يستسلم حتى استطاع بحنكته ومن معه السيطرة على هذا الموقع الاستراتيجي.

انفعلت معه وشاركته البطولة كأني معه في الموقع؛ فانتفخت عروقي، وأصابتني حميا التصوير فأمسكت قلمي وسجلت تلك اللوحة الرائعة.

ويأتي دور ديوان الرثاء "عشرون ليلة في الأحزان"، وهو عبارة عن اثنتين وعشرين قصيدة كتبت في عشرين ليلة متتالية بعد أن فقدت رفيقة دربي ــ رحمها الله ــ ولهذا الديوان منزلة خاصة حيث كتبته بدمي لا بمدادي وكتبت قصائده دون ترتيب للأحداث؛ وإنما مجمل القصائد تصور حياة سبع وعشرين سنة في أسرة سعيدة مستقرة، ولا أدري ماذا أختار الآن؛ لأن قصائد الديوان تعد لقطات مختلفة لشيء واحد متكامل؛ ولكني سأجتهد في الاختيار وسآخذ قصيدة "عيد بلا عيد" كتبتها بعد عشرين ليلة من الفراق، وكانت يوم ٦/ ١٠/ ٢٠١٥م وهو اليوم الموافق لعيد زواجنا السابع والعشرين الذي لم يكتمل؛ فأمسكت قلمي وسطرت:

اليوم عيد زواجنا لم يكتمل عشرون يوما قبله حان الأجل ! !
من ربع قرن أو يزيد ونحن في شغف لهذا العيد يا نور الأمل
وهديتي بتحيتي: عام مضى في الثغر ألمح فرحة فيها الخجل
ضاعت أماني عمرنا في لحظة وتصلب الدمع الخرير على المقل
ذابت شموع موائدي في حسرة وفتيلها الريان يأبى يشتعل ! !
والتورتة الخرساء باء لسانها بمرارة الأحزان يلعق ما هطل

قلبي يئن ويصطلي من ناره ودموعه الحرى تفتّ بلا بلل
يا ليلة ليلاء غاب ضياؤها وبقيت أخبط في الظلام، فما العمل؟

وأنتقل إلى لمحة أخرى من لمحات الإبداع، وتقلبات الدهر، فقد حاولت مسايرة الحياة ومعايشة الواقع فانتقيت رفيقًا آخر ظننت فيه الراحة، وفي بداية علاقتي به تحرك فؤادي ينبض مرة أخرى ــ أو هكذا ظن ــ وفي إحدى الزيارات له صورت اللقاء قبل اللقاء، ثم وصفته بعد العودة في قصيدتين ارتجاليتين إحداهما في طريق الذهاب، والأخرى في طريق العودة، قلت في الأولى:

يزيد الشوق يوما بعد يوم فهل للقرب منكم من سبيل؟
يود القلب أن يبقى لديكم يُحوّم في حمى الحب الظليل
متى يا دهر تطفئ نار شوق تحرّق من جفا البعد الطويل؟
ظننت الحب قد جافى فؤادي وعاند مهجتي يوم الرحيل
وإذ برفيقة تحيي مواتي وتكسر قيد أحزان العليل
أسرتِ القلب من حصن حصين وطفت بمهجتي وادي النخيل
أسوتِ الجرح بالصوت الحنون وغذيت البلالة بالجميل
فماذا أطلب الآن لقلبي سوى شربي من الكأس البليل
لك الشكران ربي يا إلهي أدمْ . . . . . لمعمود كليل ! !

وكان اللقاء وديا حميما دام لحظات، وحان وقت العودة والفراق فارتجلت في طريقي:

أحسست بردا وسلاما عند توديعي قيامًا

قـــد حبـــاني بالأمـــاني يـــا زمـــاني لـــن أضـــاما
يـــا حيـــاتي أيقظـــيني وابعثـــي في الكلامـــا
هـــل أنـــا أغفـــو بليـــل أم تـــرى قلـــبي نيامـــا ؟
لحظـــة مـــرت خيـــالا ليتـــها كانـــت دوامـــا
هكـــذا ســـاعات فرحـــي تمتطـــي خـــيلا كرامـــا

وكان ما كان من الهجر والتلاعب، وتشريد القلب وانصـراف الوجـدان حتى مع الوجود، فذهبت للمصيف في عامين متتاليين أحسست بالوحدة وسـط الأمواج فغامت رؤاي وجال الفؤاد هائما في خياله يتذكر الأيام الخوالي، أيـام الاستقرار مع الراحلة الكريمة، فارتجلت قصيدتين وسط الأمواج في مصـيفين مختلفين وفي عامين متتالين، الأولى بعنوان "في بحر الظلمـات" قـدمت لهـا بقولي: ارتجال في البحر ساعة الغروب، في وحدة رغم وجود الرفيق:

بـــألف ألـــف كانـــت ولـــن أبـــوح بـــذاك
طاولـــت فيهـــا الـــنجم والشـــمس والأفلاكـــا
يـــا نجمـــة قـــد ولـــت تركـــت لي الأحلاكـــا
يـــا وردة قـــد جفـــت تركـــت لي الأشـــواكا
وبراعمـــي بخـــواطري لا أســـتطيع فكاكـــا
وعهودنـــا كعهودنـــا أمهرْتهـــا بولاكـــا
حاولـــت أكمـــل دربـــي فمـــا اســـتطعت حراكـــا

وحاولت إكمال الدرب فلم أطق، وكان العام التالي بتجربة أخرى وحالة مماثلة في مصيف آخر، فارتجلت تحت عنوان "الحبيب المجهول"، بعد أن قدمت لها بقولي: في هذا الصيف أيضا، وقفت وسط البحر وحيدًا ــ رغم الرفيق ــ أغالب الأمواج الهادرة، وتدور عيني في الأفق حائرة، فارتجلت:

لمن أقول أحبك لمن أقول سلاما ؟ !
والقلب ينبض حزنا ولن يجيد كلاما
تهللت أمواجي فكانت الآلاما
والموج إثر الموج يغالب الأحلاما
أغفو لطيف يسري فأبصر الأوهاما !

***

تحلقت ألفٌ تعانق الأنساما
وحلقتي ما تمت أشكو لها الأياما
أدور حول الفوضى أراجع الأعواما
تعوي ببحري الريحُ تقصّف الأقلاما
تناثرت كلماتي تستعطف الأقواما
كلٌ يهيم بروح كلٌ يفيض غراما ! !
وأنا أغوص ببحر أعانق الأسقاما
لمن أقول أحبك لمن أهيم هُياما ؟ ! !

وقصائدي الثلاث الأول من ديوان "دوائر بلا خطوط" هكذا أطلقت عليه، وأنا أحب أن أسمي دواويني بما يناسبها وما تحتويها، وقد لمح أحد النقاد

الشعراء هذا المسمى بعد أن قرأ الديوان وحلل بعض قصائده فقال عنه تحت عنوان "شاعر دوائر بلا خطوط":

"إذا كانت النقطة في الخط المستقيم تسير من البداية إلى نهاية فإنها تظل في الدائرة تدور بلا نهاية، وما بالك إذا كانت الدائرة نفسها بغير خطوط تحدها إنها تصبح متاهة ودوامة بلا قرار، وهذا ما رسمه بالكلمات الشاعر الكبير الدكتور/ محمد الغرباوي مصورا عذاب وجدانه الذاتي في ديوانه الجديد "دوائر بلا خطوط" والذي يعكس فيه إحساسه بالمأساة من خلال الصور الشعرية الرمزية التي تشكل في مجموعها عدة أنغام وجدانية هي معادل موضوعي للحزن والحيرة والضياع والإحباط، والقصائد هنا هي تهويمات وأشواق روحية لا ترتوى لأنها تنزع نحو المطلق الذي لا يتحقق أبدا في الواقع المادي، فشاعرنا هنا مثل "بيجماليون" عاشق التمثال الذي صنعه بيديه فلما تجسد له بشرا سويا امرأة حقيقية فقد حبه لها لأنه كان يعشق صورة في خياله كما تقول الأسطورة الإغريقية، أي أنه كان يحب المطلق اللامحدود فإذا تجسد وتحدد تبدد ... ورغم رمزية شاعرنا في هذا الديوان مما يجعله قريبا من الحداثة إلا أنه ظل محتفظا بالتراث في شكل القصيدة العمودية وبحور الخليل بن أحمد ووحدة القافية ومحتفظا بالتراث في القاموس الشعري الكلاسيكي، وبذلك نعتبر الدكتور/ محمد الغرباوي على رأس الحرس الجديد للشعر العربي، وينطبق عليه مقولة "ت.س. إليوت" [إن الشاعر العظيم هو الذي نشم في شعره عبق الماضي ورائحة الأسلاف العطرة] إن شعر الدكتور محمد الغرباوي ينبع من مرتفعات التراث مكونا رافدا جديدًا يصب في نهر الشعر العربي العظيم"[1].

(١) جريدة اللواء الإسلامي بقلم د. صلاح عدس.

المبحث الثاني
بين الشعر الذاتي وشعر المناسبات

بقي أن أتحدث عن الفرق بين الشعر الذاتي وشعر المناسبات، فشعر المناسبات من مديح وتقريظ وترحيب وإشادة له مفرداته وسماته واستعداده النفسي والموضوعي، وأنا شخصيا أعترف أنني ألاقي فيه بعض الجهد والمعاناة في البحث عن تحديد المعاني وترتيب الأفكار واصطياد الصور بحيث يخرج الموضوع في صورة متكاملة ــ خصوصا إذا فرض على الشاعر هذا الموضوع كاستقبال حفل أو الترحيب بشخصيات لها مكانتها العلمية أو الثقافية أو الاجتماعية ــ ومع أنني لا أكذب ــ علم الله ــ فيما أدعي من صفات أخلعها على الممدوحين ــ وهم ندرة ــ إلا أنني أجهد ذهني وأكد خاطري حتى أوازن بين الصدق النفسي والصدق الفني.

أما الشعر الذاتي الذي يعبر عن الشعور النفسي فغير ذلك تماما حيث تنطلق النفس على سجيتها، وتنساب المشاعر في متاهات أو طرق لا متناهية في التعبير عن الأحلام والأوهام والواقع والجروح والأفراح في غير كلفة ولا إرهاق ولا تقييد ببداية أو نهاية.

وسأضرب مثالا لذلك الفرق بين اللونين، منذ سنوات أقامت كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالقاهرة مهرجانا شعريا لتكريم علماء الأزهر وإبراز دوره في التاريخ الماضي وفي حياتنا المعاصرة، وكان ذلك المهرجان تحت رعاية رئيس الجامعة أ.د/ إبراهيم الهدهد وعميد الكلية آنذاك أ.د/ محمد المحرصاوي (رئيس جامعتنا الحالي) فطلب مني الزميل العزيز أ.د/ حسني عازل أن أشارك في المهرجان بقصيدة لظنه بشاعريتي من أيام مرافقتي في السفر في المملكة العربية السعودية؛ ولا أخفيكم سرا أنني أبغض الإملاءات

وأخشى عواقبها وأتحسب لها حسابات لا تعد ولا تحصى، فاعتذرت له مرارا في الهاتف فألح عليّ وأصر أن شاعريتي ستجود بقصيدة عصماء ــ هكذا أخبرني ــ ومع الإصرار وحب المشاركة للزملاء سهرت ليلة أفكر فيما أكتب، فاستحضرت تاريخ الأزهر ودوره العظيم وما أداه علماؤه العظام وشيوخه الكرام من تنوير وتثقيف وحفاظ على الهوية الدينية الصحيحة في مصر وخارجها عبر العصور منذ نشأته وحتى أيامنا هذه، وبعد أن تناثرت الصور في ذهني استجمعت شاعريتي واعتصمت بمخزوني اللغوي والفكري وأمسكت قلمي وأوراقي وصغتها في أبيات متتالية عبر ثلاث ليال أقف عند كل بيت وكل معنى حتى يتماسك الموضوع ويخرج في لوحة فنية متكاملة ــ وقد أنشدتها مرتين: الأولى في مهرجان الشعر المذكور في ١٩/ ٤/ ٢٠١٦م، والثانية بمناسبة إقامة كلية اللغة العربية بالزقازيق ــ وأنا عميدها ــ مؤتمرها الدولي الخامس تحت عنوان: آفاق الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ورأيت أن أضمنها كلمتي التي ألقيتها على جمهور الحاضرين ومع أنها لاقت استحسانا في المرتين، وأشاد بها الحاضرون والسامعون، إلا أنني لا أضعها في مرتبة الشعر الذاتي، الذي سأضرب به مثلا بديواني القصيدة "انكفأت على ذاتي"، وقد قلت في قصيدة الأزهر تحت عنوان: "**في حب الأزهر**"

في حُبِّ أزهرنا أتيتُ مُرَحِّبًا ... بالذائدين عن الحياضِ المترعَهْ

وقفوا شموخا في منارات الهدى ... يتْلون بيضًا من شهابٍ لامِعَه

غَرسوا فضائلَ عِزّهم في نهضةٍ ... جابتْ بها الرَّكبانُ دنيا واسعه

مِنْ كُلِّ شيخٍ ألمعيٍّ لوذعي ... حَفِظ التراثَ مع المذاهبِ أربَعَهْ

ومِنَ العلومِ الدُّنيويَّةِ أسَّسوا ... نهْجًا قويمًا سادت الدنيا مَعَهْ

ذاك ابنُ "رافعٍ" الذي أهدى لنا تخْليص "إبْريزٍ" "لباريسَ" الدَّعَةْ
قَلَمٌ يُترْجِمُ عَنْ لُغَاتِ علومهمْ في زيِّ أزهرنا، ونُعلي "رافِعَةْ"! !

* * *

كمْ وقفةٍ للعالِمِين أُولي النُّهى صَدَّتْ تتَارًا أو مغولاً مُسْرِعَةْ؟!
هَتفوا بمنبرنا فلَبَّتْ أُمَّةٌ تأبَى الهوانَ، ولا تخافُ الفَرْقعةْ
مَنْ لي بـ"عِزٍّ" لا ينافِقُ حَاكمًا أفتى بَبَيْعٍ في حروفٍ مُوجعَةْ؟!
أَلْفٌ مِنَ الأعوامِ زادَ بريقُها عَنْ كُلِّ نجمٍ لا يَرُدُّ مَنافِعَه
هتفَتْ بهِ الدنيا بكلِّ رُبُوعها: يا أزهرٌ، يا ابنَ المنارَةِ ناصِعَةْ! !
واستوعَبَ الأضيافَ تَسْكنُ قلْبَهُ مِنْ كُلِّ فجٍّ، والبرايا سامِعَةْ
نَهِلوا صُنوفَ العلمِ قد طاروا بها سُفَراءَ عَنَّا بالمحاسِنِ جامِعَةْ
وسطيَّةٌ في الفكر تحكي دينَنَا بالعدْلِ والإحسانِ، لا مُتَصارِعَةْ
تتقبَّلُ الأخلافَ في كَنَفِ الرضا وتَصُدُّ هَجْمةَ غادرٍ بالرادِعَةْ
بالحُجَّةِ البيضاءِ تهْدِمُ زعْمَهُمْ وتُنيرُ حُجَّتَنَا بروحٍ وادِعَةْ

* * *

إنِّي أرى الأذنابَ تنفُثُ سُمَّها لتفُتَّ في عَضُدٍ بِنَبْلٍ قارِعَةْ
أَنَّى لها؟ واللهُ ناصِرُ جُنْدَهُ إنْ تنْصروا الرحمنَ ينصُرْ مَانِعَةْ! !
يا أيها الأقمارُ في ليلِ الدُّجَى كونوا كما كانوا وَجُذُّوا الباقِعَةْ
سيروا على نهجِ الأُلَى في علمهم مِنْ غيْرِ مَا عَنَتٍ بِشْمسٍ ساطِعَةْ

سُـدُّوا علـيهمْ كُـلَّ بـابِ شـائكٍ   واسـتثْمِرُوا زَهْـرَ البراعمِ يانِعَـهْ
يـا ربِّ وفـقْ كُـلَّ شـيخٍ جـامعٍ   للعلـمِ ينفعُنـا، ونضِّـرْ سَـامِعَهْ
واهْـدِ الخلائـقَ للتَّمَسُّـكِ بالهُـدَى   واحفْظ لنا شيخَ الشيوخِ ومَنْ مَعَهْ!

أما الأنموذج الخاص بالشعر الذاتي، فقد مرت منه أمثلة قبل ذلك؛ ولكني سأشير إلى نموذج خاص جدا؛ لأنه كتب في ظروف خاصة جدا، لم أحدد ملامحه، ولم أدر بدايته ولا نهايته، فجاءت القصيدة ديوانا كاملا في صورة متآلفة مركبة من أجزاء ولوحات يكمل بعضها بعضا في ليالٍ متتالية وفي مكان واحد وحالة واحدة أجلس على الأريكة وأمسك بالقلم وأتناول الورق وأتب كلمة واحدة فتنسال الكلمات متراصة متتالية تسبق إلى الورق وتتكاثر على لساني أنطقها أحيانا وأحيانا أخرى تدور في عقلي وقلبي حتى انتهيت منها فأطلقت عليها "القصيدة الديوان" وأسميت الديوان "انكفأت على ذاتي"، وسأخص هذه القصيدة بذكر خاص؛ لما لها من أثر في نفسي قبل وحين إنشائها؛ فربما هي الوحدة الحقيقية والغربة المعنوية في مكان آهل وليس بآهل؛ شخوص متباعدة، وقلوب متفرقة، رغم وجود الصور وحركة الأجساد

قلت في أولها:
أشحذ الكلمات قسرا
من وجوه شارده
تنحت الأوهام سكرى
في أخاديد الظلام
فجوة في العمر حلت
غالبتْها

واشتـــــت تهــــذي بجلـــــم
في ســــــراديب الهــــــوى
العـــــافي بمـــــرآة الكـــــلامْ
وأنـــــــا أطفـــــــــو
فـــــوق موجـــــات الســـــهاري
أحـــــرفي صـــــرعى
وأشـــــداقي تجـــــادل في الصـــــدام
يـــــــا زمـــــــاني
ملـــــني حـــــرفي وشـــــاختْ
علـــــــتي فيهـــــــا
أيـــن مـــن كانـــت لياليـــه التمـــام؟

وفي إحدى ليالي شهر نوفمبر القاتمة، التي كتبت فيها القصيدة، تأتي لوحة أخرى تصف جانبا من معاناة الوحدة في موسيقا هادرة بلا موج كصاحبها؛ فهو يجثم في بحر من الآهات والخيالات يسبح فيها دون حراك، صورت ذلك في قولي وسط القصيدة:

أســـــبح في المـــــوج/ الـــــركن
بـــــــــلا بحـــــــــرِ
الـــــزرع/ الرمـــــل/ الكتّـــــانُ
بعمـــــــــر يجـــــــــري
البنيـــــانُ الجـــــاثم حـــــول الشـــــط
بســـــجادٍ مخطـــــوطٍ عجمـــــيٍ
يعكـــس لوحـــات الـــزمن الماضـــي

بـــــــــل والآتـــــــــي
يســكنه عطـر مـن طـين الغربـةِ
دبــتْ فيــه حــروف الوحــدةِ
أملـــــــــى ســـــــطرا
في كـــــــــــــــــراس
الجــاثم فــوق أريكتــه المحتومــةِ
أنـــــى يســـــبح دون ميـــــاهٍ
هـــذا البحــر بــلا شــطآن
لا يُرضـــــــيه المـــــــدُّ
بغـــــــــير الجـــــــــزْرِ

وتتوالى الموجات العاتية في صخب فوق أريكة شبح قابع مستسلم للآهات يغالبها بكلام صامت، ثم يترجمه بحروف تنسلخ عن فؤاده المكلــوم ــ وقــد ختمت تلك القصيدة بلوحة نهائية للصورة المرسومة في أولها ووسطها، وهــي بذلك تتعاون مع مثيلاتها في تجسيد تلك المعاناة وتشخيص الداء، ولكــن أيــن الدواء؟

قلت منهيا قصيدتي:

كســر الليــل حــواجز صــمتي
وجــــــاء تـــــبختر
وطــىء وســادة ركــن أقنــى
فــر إليــه رضًــا يتعثــر
قـــــد ناجــــاه:
بــــــلا لــــــيلاه

بـــأحرف نـــور الســـر
ألا تتـــــــــــــذكر ؟ !
ماجــت ذكـرى العــاتي فيهــا
خاضـــــــــــــت
بحــرا مـــن شـــهدٍ / ســكر
غــص الحلــق بريــق هــواه
وجـــــف نـــــداه
ومـــــاتِ نـــــداه
فتلــك حــروف لا تتكــرر ! !
غنــوة ليلــى مــن أصــداه
شـــقوة صـــمتي يـــا نجـــواه
حـرفي حـرف فيـه الحـاء / النونُ
وليســت حــاءً بعــد البــاءِ
فحــائي حــاءٌ لا تتجَبّــرْ ! !

تلك لمحة عن ظروف إبداع تلك القصيدة الطويلة، وهي بلا شك تختلف عن الشعر الموضوعي تماما؛ فقد كتبتها بقلبي وعروقي وأحاسيسي، وليس بعقلي المفكر المرتب للأحداث أو المعاني بداية ووسطا ونهاية كما فعلت في قصيدة "في حب الأزهر" مثلا، وهذا هو الإبداع الذي أعانيه من داخل النفس فينساب أمامي وأنا أتبعه أينما يوجهني حتى أحس بنفاد الأحرف والانفعال معا فيسقط قلمي وتخبو ثائرتي وأركن لذاتي أتأمل ما بها من آلام أو آمال.

المبحث الثالث

بين الناقد والمبدع

ومن عجائب القدر أنني حين شرعت في إخراج هذه الدراسة المتواضعة اتصل بي الصديق العزيز الناقد الشاعر د. صلاح عدس يخبرني أنه قرأ ديوان "انكفأت على ذاتي" مرة بعد مرة يتأمل بحيرة تارة وبإعجاب تارة حتى أخرج رؤيته وتذوقه له في مقالة بعنوان "الميتافيزيقية في ديوان: انكفأت على ذاتي للشاعر الدكتور/ محمد الغرباوي" وهيأه للنشر، ثم بعث لي أصل المقالة، وبعد قراءتها بعمق أحسست أنه قرأني وغاص في أعماقي، وفسر غامضي في كثير من رؤاه وتصوراته النقدية الصائبة؛ لذا آثرت أن أثبتها هنا لتكتمل الصورة لدى المتلقي؛ وليكون ذلك بمثابة جسر للتواصل بين المبدع والناقد القارئ ــ خصوصا إذا كان الناقد شاعرا، فالدكتور/ صلاح عدس ناقد وشاعر مسرحي كبير، له عدة مؤلفات أدبية ونقدية؛ كما أن له مسرحيات كثيرة، وقد نوقشت مسرحياته في رسالة ماجستير في كلية اللغة العربية بالزقازيق في جامعة الأزهر في رسالة بعنوان "المسرح الإسلامي بين محمد عبدالمنعم العربي وصلاح عدس تحليل وموازنة" وحصل الباحث بها على درجة الماجستير في اللغة العربية في الأدب والنقد في عام ٢٠١٧م، وها أنذا أثبت هذه الدراسة لديواني "انكفأت على ذاتي" إيمانا مني بدور النقد البناء الذي يغوص على الحقائق، ويقرب المسافات بين المبدعين والمتلقين.

الميتافيزيقية
في ديوان: انكفأت على ذاتي
للشاعر الدكتور/ **محمد الغرباوي**
بقلم د/ **صلاح عدس**

"انكفأت على ذاتي" ديوان جديد للشاعر الكبير الدكتور محمد الغرباوي، والجديد في هذا الديوان هو أنه أولا قصيدة واحدة فهو بذلك منظومة محكمة أي أن الوحدة العضوية فيها شديدة الترابط، وثانيا أنه يمثل درجة عالية من الرمزية تذكرنا بأشعار "بودلير" و"مالارميه" لكنها رمزية من نوع آخر نوع صوفي إسلامي .. وإن العلاقة بين الشعر والصوفية وثيقة والعامل المشترك بينهما هو الرمزية وذلك لأنهما أي الشعر والصوفية هما تعبير عن منطقتين متجاورتين من التجربة الإنسانية، فكلاهما محاولة للاقتراب من حافة الغيب والوصول إلى الله إلى المطلق إلى اللامتناهي، وهنا يصعب التعبير التقريري المباشر بالمدلولات الواقعية للألفاظ لذلك يلجأ الصوفي والشاعر للتعبير عن تجربته شبه الغامضة من خلال المجاز أي الصور الشعرية الرمزية ولذلك كتب كبار الصوفية قصائد شعرية مثل "رابعة العدوية" وابن الفارض بل إن صوفيًا مثل "النفري" عبر عن تجربته بالنثر ولكن بأسلوب شعري مغرق في الشعرية أي في الرمزية ...

وإن هذه القصيدة الديوان تذكرنا بلوحات "المذهب الميتافيزيقي" التي رسمها الفنان "دي كيريكو" والتي يصور فيها حوائط ضخمة ومباني شاهقة وأفقًا بعيدًا غامضًا وطرقات طويلة ممتدة إلى ما لا نهاية يسدها الضباب، والمناظر كلها تكاد تسمع فيها دقات طبول حزينة في موسيقى جنائزية يمتزج فيها الأسى بإيقاع الصمت الجليل، وهذا هو ما نحس به في ديوان شاعرنا

الدكتور محمد الغرباوي ... والميتافيزيقية هي ما وراء الطبيعة المادية من غيبيات وإلهيات وروحانيات، وهناك مدرسة ميتافيزيقية في الشعر الإنجليزي وهناك مدرسة ميتافيزيقية في تاريخ الفن التشكيلي في التصوير الأوربي .....

والشعراء الميتافيزيقيون ظهروا في القرن السابع عشر وعلى رأسهم "جون دون" وجورج هربرت، وكانوا متدينين ومتأثرين بالأفكار الصوفية وكانوا يقرنون أي يجمعون ويربطون بين الأفكار بعضها البعض بطريقة لم يعهدها أحد من قبل وهذا هو سر الغموض في شعرهم(١) وهذا ما نجده في ديوان شاعرنا الدكتور محمد الغرباوي ...

كما تذكرنا هذه القصيدة الديوان بمسجد "الرفاعي" الكائن في ميدان القلعة بالقاهرة وأمامه مسجد السلطان حسن وكلاهما يمتاز بالحوائط الضخمة الشديدة الارتفاع والأبواب العالية والأسقف الشاهقة والأعمدة العالية الفخمة بما يثيره كل هذا من أحاسيس ميتافيزيقية بالأبدية وتكاد تسمع فيها دقات الصمت الجليل الحزين، وهذا ما نحسه عندما نقرأ هذا الديوان القصيدة لشاعرنا الدكتور محمد الغرباوي ولذلك نجد الإحساس العام في هذه القصيدة هو الإحساس بالمأساة من خلال نغمات وجدانية قوامها الحزن والوحدة والاغتراب والضياع بعد فقدان شيء عزيز جدًّا بينته بوضوح في "عشرون ليلة في الأحزان" الذي كتبه شاعرنا في رثاء زوجته، إذ إن تجربة الموت تجعلنا نشعر بأن هذا العالم هشٌّ وقابل للانكسار فجأة وفي أي لحظة، فلا يملك شاعرنا إلا الانكفاء على الذات والتسليم لله في صمت حزين وفي صبر ٠

ولنتأمل كل ذلك في هذه الفقرات من قصيدته الديوان:

يـــــا زمـــــاني

(1) **History Of English literature. By: I for Evans.**

مَلّــــني حَـــرْفي وشـــاخَتْ
علـــــــتي فيهـــــــا
أين من كانتْ لياليه التمامْ؟ !

فهنا نغمة الإحساس بالملل والداء الذي طال أمده وافتقاد العـالم الجميـل الذي وليَّ إلى الأبد وذلك من خلال صورة الحرف الذي سئم مـن مصـاحبة شاعرنا الذي طالت علته حتى أصابتها الشيخوخة دون جـدوى لأن الحـزن يطارده:

أقهـرُ فرسـان الحـزن الـراكض
خلفــــــــــــي

فهنا نغمة الحزن يجسدها من خلال صورة الفرسان التـي تعـدو خلفـه وصورة الكلمات السوداء والحبر الأحمر بلون دمه:

أكْتُبُهــا كَلِمَــاتٍ سُــودًا
بمـــــداد أَحْمَـــــرْ

ويجعلنا شاعرنا نحس بأن اتصال الأنـا بـالآخر مسـتحيل لأن الآخـر المحبوب سريعًا ما يرحل عن دنيانا:

وَصْــلٌ ووصـــالٌ فَــانٍ
قَســماتُ وجُــوهٍ تُشْــقيهاً
وأبــــوحُ بهمّــــي
للأحجـــار وللأوتـــارِ
وللأقـــــــلامِ
فـــــلا ترضـــــيها

وهنا نحس بأن سر حزن الشاعر هو أنه "لا اتصال" وأن الموت يـــدهمنا فجأة حين يأتي بغتة فروح شاعرنا تدور خارج حدود جسده:

ســـــاعاتٌ تجـــــري
أتشـــبَّثُ بالـــذَّيل البـــاقي
مِــــنْ فَضْـــــلَةِ عُمْـــــرِي
فمـــداري خـــارجُ أســـواري

ويصور شاعرنا سر مأساته في انكفائه على ذاتـــه مـــن خـــلال صـــورة مفاصل الأيام التي تفككت والعظم الذي أصابه الوهن تحـــت وطـــأة الظلـــم إذ يقول:

ومفاصـلُ أُيـام العمـرِ تهـاوتْ
وهنَــــــــتْ عَظْمــــــــا
تلـك الـذاتُ انكفـأتْ خَجلـى
شـــــبعتْ ظُلْمَــــــــا

ويصور لنا شاعرنا نغمة الإحساس بالوحدة من خلال هذه الصور:

في وَحــــــدةٍ أبديَّــــــةِ
تنســـابُ أيـــامُ العُمُـــرْ
في ظلمـــــةٍ وحْشـــــيّةِ

ويصور لنا شاعرنا نغمة الإحساس بالغربة المصاحب للإحساس بالوحـــدة الأبدية حتى وكأنه يسبح في بحر بلا مياه ولا شـــطآن ويظـــل يرشـــف فـــي الساعات المتبقية من العمر خمر الفراق إلا أن شاعرنا يجد خلاصـــه فـــي الله وفي محاولة صوفية للاتصال الروحي بأنواره القدسية:

مِــنْ خيطـــان الشـــمسِ

اللاهِـــــــــــــــبِ
فِي صَـــــــمتِ الأحــــــزانِ
فَقَـــرّتْ عَـــينُ النّاســــكِ
بـــــــالمعبودِ الواحِـــــــدِ
ثـــم انهمـــرتْ قطْـــرةُ وَجْـــدٍ
حَنّـــــــتْ تســـــــمو
فِي محرابِ خُلودِ الوجدانْ ! !

ويصور شاعرنا سر المأساة لديه من خلال تجربة موت الحبيبة وذلك من خلال صورة باخرة الموتى التي تصفر صفيرا دمويا يختلط بصوت مزمـور الموت حتى نسمع صوت الصمت الذي يرن في أذن الليل فيقسو قسوة أشد من قسوة الذين قتلوا "الحلاج" الصوفيّ وصلبوه .. وأخيرا يتساءل شاعرنا:

هَلْ من فجر؟ ! ! !

وهذا ليس استفهاما حقيقيا وإنما هو رجاء اليائس من عودة الوصال بالحبيب الذي رحل إلى الأبد ... هذه هي المأساة التي يصورها شاعرنا تعبيرا عن تجربة شعرية حارة وصادقة أمام الموت من خلال النغمات الوجدانية للحزن والسأم واليأس والوحدة ومن خلال الصور الشعرية الموحية والعالية في رمزيتها لتتناسب مع تجربته الميتافيزيقية(1) .. كلمة أخيرة هي أننا هنا أمام شاعر كبير يستحق الدراسة وكل التقدير وإن رمزيته هنا ليست هي رمزية مالارميه أو بودلير في ديوانه "أزهار الشر" وإنما هي رمزية

(1) History Of English literature. By: I for Evans.

"ميتافيزيقية"[١]، فقد كان الشعراء الميتافيزيقيون متدينين ومتأثرين بالصوفية بينما لم يكن شعراء الرمزية كذلك وإنما كانوا يتلاعبون بالألفاظ والصور بلا رؤية للإنسان والكون والله وهذه الرؤية نجدها عند الميتافيزيقيين وعند شاعرنا الدكتور محمد الغرباوي بقي أن نعرف أن لوحات الفنان الميتافيزيقي "دي كيريكو" كان يصور فيها أشخاصا منكفئين في صمت حزين تحت الجدران الشاهقة الممتدة إلى ما لا نهاية فتحس بضآلة أجسادهم[٢] نفس الإحساس الميتافيزيقي الذي تحسه أمام مسجدي الرفاعي والسلطان حسن أمام ضخامة الكون وجلال الله[٣]...

(١) انظر كتاب الميتافيزيقا ــ تأليف أرسطو.

(٢) انظر كتاب مجمل فلسفة الفن ــ بند توكروتشة ــ ترجمة: د. سامي الدروبي.

(٣) كتاب الفنون الإسلامية ــ م. س. ديماند ــ ترجمة د. أحمد عيسى.

المبحث الرابع
الإبداع بين الوقت والشكل

بقي أن أتحدث عن قضية وقت وشكل كتابة الشعر، فأقول: ليس هناك وقت يحدده الشاعر للكتابة فلا يستعد بأوراق وأقلام ويجلس على مكتبه حتى يستلهم فكرة معينة فيسطرها على أوراقه، تلك رؤيتي الخاصة وتجربتي الفعلية التي أباشر بها الإبداع؛ فبمجرد أن تنهال على خاطري فكرة بمطلع أو أكثر من المطلع أتحسس ما معي من أدوات فأخرج قلما وألتقط أي قصاصة من جانبي وأخط فيها فكرتي سريعا فإن استوعبتها تركتها على حالها من دون إعادة أو تجديد، وإلا استعنت بورقة أخرى أكمل بها فكرتي.

وكثيرا ما سطرت إبداعاتي على أوراق خاصة بالتقويم أنزعها وأكتب فيها، وقد يكون غلاف كتاب أو أي شيء يصلح للكتابة عليه، وأذكر مرة أنني كنت في إحدى الدوائر الحكومية في الصباح الباكر أقضي بعض شئوني فهالني تكاسل الموظفين وتراخيهم في إنجاز الأعمال مما أدى إلى تذمري وضياع مصالح أخرى لي، ولم يكن معي سوى مظروف به أوراق خاصة بإنجاز المهمة فهمهم قلبي بقولي:

يتوافدون على مهل زحف السلاحف في كسل

عجبا! لبطء قدومهم خلق ابن آدم من عجل!

فلم أجد سوى المظروف لأسجل عليه تلك القصيدة المرتجلة.

ومما يدعم رأيي أنني في أثناء كتابة هذه الصفحات كنت أقرأ كتابا عن إبراهيم ناجي وإذ بي أجد فيه تشابها لتلك الحالة التي أثبتها، فأحمد رامي كان يكتب قصائده وهو نائم تحت السرير أو محتضن مخدته ــ كما قالت زوجته

ـــ، وكذا كان ناجي يكتب قصائده على أي ورقة يتناولها إذا عن لـــه خـــاطر غير مبال إذا كانت هذه الورقة غطاء علبة سجائر أو فاتورة حساب في مقهى أو ما إلى ذلك[1].

وأذكر أنني كتبت ديواني القصيدة "انكفأت على ذاتي" في ليـــالي متتاليـــة وأنا جالس على أريكة واحدة في صحن بيتي وحيدا ساهرا!!، كما أشرت إلـــى ذلك عند الحديث عن ظروف كتابة الديوان.

وبعد، فتلكم تجربتي مع الإبداع الشعري طوال فترة كتابتي منذ أكثر مـــن ربع قرن، تقلبت بي الأحداث، وتنوعت فيه التجارب وكنـــت لا أجـــد ســـلوى سوى تسجيل خواطري وترجمة مشاعري في رؤى وأفكار تصـــف حـــالاتي، وقد أثبت ذلك عند كتابتها، وأكدت عليها عند الطباعة والنشر بذكر المقـــدمات للقصائد –في الأعم الأغلب– وكذا تأريخ الأحداث التي قيلت فيها التجارب.

وأرجو بذلك أن أكون قد وضعت تجربتي الخاصة بالإبـــداع بـــين يـــدي الدارسين علهم يفيدون منها أو يجدوا فيها بعض الإجابات التي تشغلهم.

والله من وراء القصد

وهو الهادي إلى سواء السبيل

الأستاذ الدكتور

محمد محمد محمود الغرباوي

عميد الكلية. أستاذ الأدب والنقد فيها

(١) انظر: ناجي شاعر الأطلال ــ محمد رضوان ــ كتاب الهلال ــ ص١٣٤ وما بعـــدها ــ دار الهلال ــ أغسطس ٢٠١٧م.